وسائل الاعلام الغربية والاستلاب الثقافي

د. المنجي الكعبي

إن الغرب لا يزال بصورة عامة ، لاسباب تاريخية وحضارية مختلفة ، يناوىء الشرق العربي الاسلامي ، رغم تدخل عدة عوامل جديدة في علاقاتهما القديمة من اجل تعايش ، لمي وتعاون حقيقي ، فبعد فشل الأهداف الاستعمارية البعيدة المدى وبعد الصحائف البيض التي سطرتها المقاومة العربية الباسلة والجهاد الاسلامي المقدس في التاريخ الحديث لا يبدو أن الغرب اتّعظ بالقدر الكافي بالماضي ، ولا يبدو أنه حتى بصدد تغيير نمط سلوكه العدائي نحو العرب تغييراً جذرياً .

هناك بطبيعة الحال احتمال بأن الغرب يحاول في حقيقة الأمر التغيير المطلوب مدفوعاً في الوقت نفسه بحاجته إلى تأمين مستقبل حياته ، غير أنه يرى العرب مستعجلين على مقاصته مع سوء الظن به والرغبة في تركيعه ، وتتعطل بالتالي محاولاته وتبقى في انتظار آفاق أنسب .

وهناك أيضاً احتمال آخر بأن الغرب عاجز حقاً في أوضاعه الراهنة عن ربط علاقات جديدة مع العرب ، قوامها التعاون والاحترام ، لأسباب ذاتية متعلّقة به أساساً مرتبطة بنظامه السياسي والاقتصادي واستراتيجيته ونسق حضارته وسلم قيمه الخاص . وهي كلها عوامل طالما لم يطرأ عليها تغيير جذري من الداخل أو من الخارج ، يبقى الغرب محكوماً عليه بالمضي في معاملة العرب المعاملة القديمة مع فارق التسمية والصيغة .

ولا يبدو أن السياسات الرأسمالية التي تسود عامة بلاد الغرب وارادة التعهد المستمر والانعاش الدائم للمخلفات الاستعمارية حيث تركها في البلاد العربية وخاصة منها الصهيونية ، من الأمور التي طرأ عليها تغيير يذكر في اتجاه تطهّر الغرب من نزعاته القديمة تجاه العرب .

تبقى مع ذلك التصريحات الرسمية ترسم لوحات متفائلة لآفاق التعاون العربي ـ الأوروبي ولآفاق الحوار العربي ـ الأوروبي ولتمتين العلاقات الثقافية بين السوق الأوروبية المشتركة وهذا البلد العربي أو ذاك أو تقوية روابط الصداقة بين هذا أو ذاك من البلدان العربية وهذا أو ذلك من البلدان الغربية ، ولكن دون أن ترتسم على الساحة الشعبية شمال البحر الأبيض المتوسط أو جنوبه نتيجة لها بوادر ثقة متبادلة وتجاوز الماضي ، وتعاون مخلص نزيه يشكل أرضية سليمة لمستقبل أفضل بين الغرب والعرب .

لماذا ؟ لأن وسائل الاعلام حرة في الغرب ولا تعكس بالضرورة وجهة نظر حكامه الرسمية . وباعتبارها ـ أي وسائل الاعلام ـ جماهيرية بطبيعتها ، فهي غير حكومية ولا حزبية في الغالب . ولذلك فانها ادعى إلى التعامل مع الرأي العام الذي تتجه اليه من زاوية مصلحته المباشرة العاجلة في الغالب دون المخاطرة بتبني أو باحداث تغيير جوهري في سلوكه ومواقفه من الأحداث التي ينفعل بها في مستوى شعوره واعتقاده وعلاقاته بالآخرين .

ومن هنا قلة وجود الوسائل الاعلامية التي تنذر نفسها في بلاد الغرب لخدمة قضية التقارب العربي ـ الأوروبي ، لأن الفكرة حتى الآن غير جماهيرية اذا صح التعبير ، فهي غير مربحة إعلامياً ، أي تجارياً ، ولا تصمد لمنافسة وسائل الاعلام المعاكسة . بل ان جرائد الأحزاب السياسية نفسها في أوروبا تعاني من المنافسة الخانقة بسبب التزامها . .

إن وسائل الاعلام الغربية هي التي تتحكم في السياسة في بلادها ، وليس العكس كما هي الحال في البلاد العربية ، اذا لم

نقل كلها ، وكذلك في البلاد ذات الأنظمة التوتاليتارية وذلك راجع لأسباب حضارية وتاريخية متعددة .

وليس معنى « تتحكم » هنا افتراض قيام ضغط من جانب على الجانب الآخر بل مجرد علاقة جدلية بين وسائل الاعلام وبين الحكومات التي تخدم النظام الذي تتفاعل تلك الوسائل داخله ، أي بالنسبة للغرب النظام الرأسمالي . إذاً فهناك تنازع بين وسائل الاعلام التي تتجاوب أو تغازل جمهورها في قضايا العنصرية والتعصب والتفوق والاحتكار وبين مواقف رجال الاصلاح أو السياسة أو الفلاسفة الغربيين من اجل مراجعة سلم المفاهيم والقيم والعلاقات بينها وبين الشعوب المتحررة والحضارات الأخرى . . الا أن هذا التنازع لا يعدو كونه حافزاً لاثارة الفكر وقدح زناد المبادرة الحرة وصمام أمان ضد كل الدعوات الانقلابية .

فليس من الغريب حينئذ أن يواصل الاعلام الأوروبي ـ والغربي بصورة عامة ـ حملاته الاعلامية علينا (الشرق العربي الاسلامي) حتى بعد انقضاء عهد الاستعمار ، لأن عاطفة رد الفعل بين شعوبنا وشعوبه (الشعوب المتحاربة) لا تنتهي بسرعة السنين القليلة بل ربما تتطلب الاجيال العديدة ، فضلاً عن مرارة الهزيمة والخشية من القطيعة التي تهدد مستقبل أوروبا بأسرها وتهدد مصادرها الحيوية الباقية بالمستعمرات القديمة . ومن الطبيعي أن يزداد احساسنا بحدة الحملات الاعلامية الغربية الموجهة ضدنا بقدر تزايد ثوريتنا ووعينا بمشاكل التخلف التي تركنا المستعمر نتخبط فيها ، وبقدر تحمسنا للتخلص منها وزيادة ، أي بزيادة الايقاع به في مشاكل مماثلة ومع اقتضاء تعويضات مناسبة منه .

نقول إن وسائل الاعلام الغربية تغزونا وتستلبنا ثقافياً . ما نقوله صحيحاً قد لا يدعي الغرب عكسه ، ولكنه فقط يختلف معنا في تقديره ، لأنه بدوره لديه رسالة حضارية يستهدف نشرها بكل الوسائل ، ويسرّه باطراد قراءة تأثير ذلك بتزايد على وجوهنا وأفعالنا .

ويسعى باستمرار لإبطال مفعول الشعور العدائي الذي لا تزال تفرزه ثقافتنا التقليدية نحوه ، لأنه انما يريد باعلامه أن يصنع صديقاً لا عدواً ومن باب أولى وأحرى أن يستفرغ عدواً تقليدياً واستراتيجياً من أمشاج نقمته وحقده أو يقاومه حتى يصرعه .

إننا اذا لم يغير الغرب تغيرنا . وهذه قضيتنا الاعلامية معه . فنحن معاً في الحقيقة في غزو متبادل ولكن غير متكافىء طبعاً ، ونحن معاً كذلك في استلاب ثقافي متبادل ، ولكن هو الآخر غير متكافىء واذا شئنا بتعبير آخر نحن والغرب في صراع حضاري مرير . سيستمر بطبيعة الحال الى أن ينتهي كما ينتهي كل صراع بالغلبة لأحد الطرفين ، أو يطرأ من الظروف في المستقبل ما يعمل على حسمه بهدنة وقتية أو دائمة ، وهو الوفاق الحضاري المعروض الآن فلسفياً على الأقل

إننا تاريخياً غزونا الغرب وغير الغرب في عقر داره، ونسخنا في كثير من بلاد العالم القديم نمطها الثقافي السائد بنمطنا الثقافي الجديد . ولدينا قوة كامنة للغزو ثانية . ولم تكن وسيلتنا للغزو ، أو للفتح الثقافي ، بأقل من وسائله الاعلامية الحديثة نفوذاً ولكن قطعاً كانت أكثرها اقناعاً وحسنى وأكثر خيراً وبالخصوص أكثرها مباشرة وحرارة انسانية . وليست بحال عبر اجهزة لا تسمع ولا ترى ، وتقتحمك ببرامجها من غير استئذان وبدون حوار ، وتعالجك معالجة الحيوان القابل للتخدّر تحت تأثير عمليات معينة فتمتلك استلاباً وغصباً ، لا عن اقتناع ووعي .

لكن وسائل الاعلام القديمة لم تكن جماهيرياً بالمرة بل كانت فردية وفي احسن الأحوال جماعية محدودة . ويمكن أن نقول إنها كانت وسائل اتصال بشرية ـ بشرية وقد تجاوزنا اليوم الاعلام والدعاية بالطرق التقليدية ، وكل الأمم مدعوة لاستخدام تكنولوجيا وسائل الاتصال الحديثة .

بيد أن مشكلتنا مع الاعلام الغربي لا تكمن فقط في مضمون رسالته الاعلامية التي تتناقض مبدئياً ومصيرياً مع أهدافنا القومية وذاتيتنا وثقافتنا المتميزة ، ولكن حتى مع احتمال تغيير مضموني فيها يبقى الخلاف بيننا في مفهوم دور وسائل الاتصال ، وفي الموقف الرسمي والشعبي منها . وليست مشكلتنا مطلقاً إزاء الغزو الاعلامي الغربي مشكل تقدم صناعي ، أو تكنولوجيا أو تجهيزات أو كفاءات بشرية . لأن هناك دولاً عديدة متقدمة صناعياً ولديها تجهيزات اعلامية متطورة وليست لدينا معها مشاكل مماثلة .

أما عن دور وسائل الاعلام في الغرب فالاجابة بسيطة . لا دور لها مطلقاً ومسبقاً ولكن في تفاعل مستمر مع المصلحة العامة من منظار حضاري متطور . وما الموقف الرسمي من وسائل الاعلام ؟ الاجابة بسيطة ، ذلك انها حرة ومسؤولة أمام نفسها فقط .

وما الموقف الشعبي منها ؟ لا موقف لأنه حر في التفاعل معها وفي الاختيار من بينها . وباختصار فان وسائل الاعلام حرة والتعامل معها حر . وهذا راجع في الغرب إلى مستوى معيّن من النضج السياسي والفكري والسلوك الحضاري يسمح بقيام

هذه العلاقة النوعية بين المواطن مسؤولاً كان أو عادياً وبين وسائل الاعلام في بلاده .

وليس معنى ذلك أن وسائل الاعلام التي لها دور محدد في بلاد أخرى ، وللجهاز الحكومي منها موقف محدد وللرأي العام المحلي منها كذلك موقف محدد هي وسائل اعلام محكوم عليها بالقياس الى وسائل الاعلام الغربية . كلاّ ، بل معناه أن الاستخدام غير المتكافىء للسلاح نفسه بين خصمين ليس له الأهمية نفسها . ولكن اذا كان كل خصم له سلاحه الخاص فلا عبرة في كيفية الاستعمال بينهما ، وانما العبرة بالنصر .

والاعلام العربي لا يستطيع أن يواجه الاعلام الغربي ويعاكس تيّاره أو حتى يحاول تحييده اذا كان يتعامل في بعض دوله مع وسائل الاعلام كما يتعامل خصمه مع وسائل اعلامه ، أو اذا كان يتعامل في بعض دوله الأخرى مع وسائل اعلامه كما تتعامل الدول الدكتاتورية مع وسائل اعلامها دون أن تكون هذه أو تلك تملك حكوماتها أو شعوبها في أغلب الأحوال مصير نفسها بنفسها ، ومصير اعلامها بنفسها .

إن الاعلام الغربي في اتجاهنا يرشح بطبيعته بالامبريالية والصهيونية ، ويتسلل الينا في الغالب من جانب ضعفنا ، أي من باب الحرية الذي نخشى أن نسده فنختنق داخلياً . وندخنه يومياً كالسيجارة اللذيذة ونحن نعلم أن التدخين مضر ، ومكتوب عليها أنه مضر .

فما العمل ؟ ان نظام الاعلام العالمي الجديد هو الحل ، ولكن الحل الفلسفي أو الطوباوي . ففي انتظار تطبيقه ، أي إقرار التبادل الحر للمعلومات والتدفق المتوازن للأخبار من مصادرها المختلفة ومراعاة الذاتيات الثقافية في المضمون الاعلامي ، فان هذا النظام قد بدأ بعد الشك في توظيفه لفائدة الدول الصناعية أي الغربية بدليل أن جهازه التنفيذي ، وهو الصندوق الدولي لتنمية الاعلام ، أقرّ مبدأ اتفاق الرأي على القرارات المتخذة داخل مجلسه واتفاق الرأي هذا هو نوع من الفيتو الجديد ـ كما وصفه بعضهم ـ أو هو يرادف الفيتو .

الحل الثوري في مجال الاعلام العربي ؟ حبذا ، ولكن لا بد أن يصادف قبل ذلك استعداداً ثورياً لدى الجماهير العربية . والاستعداد الثوري انما تحرّض عليه وتبلوره وسائل الاعلام العربية نفسها ، وهذه يتسلط عليها في الغالب الاعلام الغربي أو التحالف الوطني الامبريالي الصهيوني في أثواب تقدمية أو تقليدية مموّهة .

ولكن الاعلام الغربي بكل ثقله الاستعماري المباشر أيام الاحتلال أو الحماية أو الوصاية لم يفتّ في زند المقاومة ولم يكبت الثورة العربية الاسلامية الا ليفجرها في النهاية ناراً حامية أتت على كثير من الاستعمار المباشر وعملاء الاستعمار الراحل ، ولسنا ببعيدين في التفاؤل اذا قدّرنا ـ مع استنفادنا كجماهير عربية لكل مظاهر التناقض الاعلامي التالي ولكل امتيازات الانظمة الاعلامية الدولية المستجدة ـ اننا نستطيع أن نتعامل مع وسائل الاعلام الغربية المباشرة أو المنتقلة عبر قنوات عربية أو دولية عامة بكل وعي وحرية ومسؤولية ومن منطلق المتفاعل مع عصره من خلال منظوره القومي وثقافته العالمية المتميزة وانسانيته الشاملة .

والى أن تمتلك جماهيرنا وسائل اعلامها بأيديها ، إما بتأميمها أو بالزحف عليها شعبياً ، فإن الاعلام الغربي لا نستطيع تحييده في صراعنا مع اسرائيل والامبريالية الا اذا واجهناه بتحدٍّ من جنس تحدّيه وفي عقر داره واذا عجزنا آنياً عن ذلك عن طريق شبكات الاقمار الصناعية فقد نستطيعه ، ولو بقدر بطيء ، عن طريق شبكات العلاقات البشرية الحميمة في جميع المستويات . فان للفرد الأوروبي قيمته وكلمته في نظامه السياسي . وسيكتشف كما اكتشف أيام الاستعمار أن أكثر الشعوب مقاومة للمعتدين هي الأجدر باحترامه وتقديره وخشيته .